هذا الشبل ... من ذاك الأسد

الفصل الثالث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله وباليوم الآخر وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها:

أولاً: الجدية والذكاء المتوقد:

منُذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسّد أي فتق أو اعتداء من قبل الأعداء: فلما قتل زنكي ٥٤١ هـ يقول ابن الأثير[1] ـ كان جوسلين الفَرنجي، في ولايته غربي الفرات: تل باشر[2] وما جاورها فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يومًا يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجدّ في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فساراً مجداً إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها فلم يبق منهم إلاّ القليل وأجلى من كان بها من الفرنج.

(١) الباهر (صـ٨٦).
(٢) تل باشِر: قلعة حصينة شماليِ حلب.

وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام ٥٣٩هـ وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية أما وقد تآمروا – ثانية – في أخريات عهد زنكي، وثالثة بعد مقتله لإعادة الرها إلى السيطرة الصليبية منها يجئ الرد بمستوى الجّد الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة.

وفي عام ٥٦٧هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملؤين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته كما يقول ابن الأثر إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا، والعزيمة شمالي، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة ـ كما يبدو ـ إلى هدنة كهذه.

ويوما بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح ـ الذي كان قد استولى عليه إحدى معاركه مع نور الدين ـ إلى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم: فقام نور الدين وقعد، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا أو أسراً، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فأخلد إلى إعمال الحيلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان نور الدين – كما يقول ابن الأثير[3]: إذا فتح حصنًا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفًا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء.

قال القيسراني يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى مَن غره النهى والأمر ... فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا اليمنا عنانها ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار في صهوة العلا ... فلن تدرك الشعري مداه ولا الشعر
إذا الجد أمسى دون غايته المنى ... فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك ... زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها ... حبي منك صدرًا ظاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين، مُذْ زرت أرضها ... سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت، فلم يحجبك عنها وليها ... وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا ... عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب، أكنّت من هواك محبة ... نمت فاتمت جهرا، وسر الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة ... فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمناك من بد هجرها ... فأحلى التّلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت ... دلالا، وإن عز الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها ... فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسى بالكراديس عابسًا ... وأصبح عن باب الفراديس يفترّ
على أنها لو لم تجبك إنابة ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعر
فإما وقفت الخيل ناقعة الصدى ... على بردى من فوقها الورق النّضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى ... وأصدرتها والبيض من عَلَقٍ حُمْر

(٣) الباهر (صـ١٠٣).

وجللتها نقعا أضاع شِيَاتها ... فلا شُهبها شُهبٌ ولا شُقرها شُقر
علا النهر لما كاثر القصب القنا ... مكاثرة في كل نحرٍ لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدا ... إلى ألغ جرى العاصي وضَحْضَاحُه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يد ... لجابرها، ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل ... فمن بارز الإبرنز كان له الفخر
ومن بز انطاكية من مليكها ... أطاعته ألحاظ المؤللة الخزرُ
أخو الليث لولا غدره، نزعت به ... إلى الذئب أن الذئب شيمته الغدر
أتي رأسه ركضا وغودر شِلوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة ... هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قِرْنٍ مَنْ حواه لك الأسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه ... فأوبقه الكفران عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونه ... ولو لم تُجب طوعًا لجَاه بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق على النسرين لم أنها الوكر
فسِرْ، وَاملأ الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم، لا فل حده ... وأفصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرًا ... وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدة في عُنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم ... مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتَيَمّم ساحل البحر مالكا ... فلا عجب أن يملك السّاحلَ البحر
سللت سيوفا أثكلت كل بلدة ... بصاحبها،حتى تَخوّفك البدر
إذا سار نور الدين في عزماته ... فقولا لليل الإفك: قد طلع الفجر
ولم لم يَسِر في عسكر من جنوده ... لكان له من نفسه عسكر مَجْر
مليك سمت تم المنابر باسه ... كما زُهيت تِيهًا به الأنجم الزّهر
فيا كعبة ما زال في عرصاتها ... مواسم حج لا يروّعها النفر
خلعت على الأيام من حلل العلا ... ملابس من أعلامها الحمد والشكر
وتوَجت ثغر الشام منك جلالة ... تمنّت لها بغدادُ أنها ثغر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلا تفتخر مصر علينا بنيلها ... فيمناك نيلٌ، كل مصر بها مصر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ... ويا طالما أمسى ومسلكة وعر
وأطمعت في الإفرنج من كان بأسه ... تخوف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جُرد الخيل أعلى حصونها ... ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدعى في قتلك الشرك شركة ... إذا لم يكن عند القوا في له ذكر
هي القانتات الحافظات فروجها ... فشاهدها عدل وراثقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها ... سوى أنها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيه وقائعه أولها :

أما وخيال زار ممن أحبه ... لقد هاج من ذكراه مالا أغبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصّبا ... ذكرت نسيما بالثغور مهّبةُ
فيا نفحات الشام، رفقا بمهجة ... يحامى عليها مدنف القلب صّبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده ... فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الأكوار من هو عالم ... غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمى، كأنها سنا ... بشر نور الدين تنهل سُحبه
إذا ما سما في مُبهم الخطب وجهه ... تمزق عن بدر الدّجُنّة حُجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى ... منافسه أي الثلاثة تربه
يعد مضاء في الظبا، لا، وضربه ... بها قلل للأعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا،أرضى الزمان بنفسه ... إلى الآن، حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الإسلام بالخليل، فاغتدت ... وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها ... فما انقشعت إلا وللذل جنبه
كيوم الرّها الورهاء والهامُ يانع ... ملى برعي الهندوَانىّ خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية ... ثناها وليل الحرب تنقضن شهبه
وعارم يوما بالعُريمة فاغتدت ... كوادي ثمود إذ رغا فيه سَقبُه

وعاصي على العاصي بأرْعن خاطب ... دم الإفك حتى أنكح النصل خطبه
بإنب لما أكسب المال وانثنى ... يصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين: للسيف رأسه ... وللرمح حتى توج الرأس قلبه
على حين النصر للخطى فيه عوامل ... يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل ... غريبًا بها عن موطن السّيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده ... ويَفعل أفعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه ... مضى وهو نصل، والمالك قربه
إلى أن دعته ربها كل بلدة ... فليس من الأمصار ما لا يربه.
ولما نزا بالقمص عُجب، هوى به ... على أم رأس البغى والغدر عُجبه
فاصبح في الحجلين ينكر خطوه ... بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه ... فياعانيًا ضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمه تل باشرِ ... فيلعنه لعن الصريح وسبّه
فإن يكن المقهور من ثل عرشه ... فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
فقل للملوك الخافقين نصيحة ... كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلوا عن الآفاق، فالشرق شرقه ... بحكم الرّدينتات، والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا ... فإن القنا في ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره ... إذا ضاق من صدر المملك رحبه
عفو عن الجاني، يكاد الذي جنى ... يكرّ به شوقا إلى العفو ذنبه
أمُتخذ الإخلاص الله جُنّة ... ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة ... وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك ... فأنت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خيرًا مغبة ... فأفرجت عن رأى يسرك غِبّه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأوضحت ما بين الفريقين سنة ... بهًا عرف المريوب من هو ربه
وبينت ما قد كان من كان يبتغي ... دليلا بان الله من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص :

هيهات يعصم من أردت جذارُ ... أني، ومن أوهاقك الأقدار
طلعت عيك بجوسلين ذريعة ... لا سحل انشاها ولا إمرار
وسعادة مازلت تمرى خلفها ... فيشف، وهو الناتق المدرار
فأرتك مايجنى الوفى وفاؤه ... وارته كيف يُحْين الغدار
عود أمر على أبارك طلعه ... فأحيل ذاك البر وهو بوار
مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا ... والله يهدم مابنى الكفار
حتى أتاح لقومه ما جره ... لثمود من عقر الفصيل قدار
أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ... مازال يدمى ظفره الأظفار
سام، كقرن الشمس، يُقبس نوره ... وتغض عون محله الأبصار
يهب التلاد من البلاد وما حوت ... إن السماحة للبحار بحار
يقظان، يخشى الله في خلواته ... لا مُترف لاه، ولا جبار
نصب المراقب العواقب ناظرا ... فيها، كذلك تربأ الأبرار
لا كالذين تعجلوا حسواتها ... وتفلسوها بعد وهي خسار
درجوا وأدرج في ملف رفاتهم ... سوءى تساء لذكرها الآثار
والمرء من يُطوى فينشر طيه ... ما أودعته صدورها الأخيار
قل للأولى ناموا على نأماته ... ما كلّ هبة بارخ إعصار
لا تأمنوا في الله بطشة ثائر ... لله، ملء سريره أسرار
صاف إذا كدر المعادن، عادل ... إن خاف حكام الملوك وجاروا
أعلى أبو له النجاد، وشيد في ... صهواتها مما ابتناه منار

محمود المحمود آثارًا إذا ... نظمت على جيد الدجى الأسمار
دانت له الأيام صاغرة،كما ... دانت له في ظله الأمصار

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ. بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس – وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان كما يقول ابن الأثير: يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول: فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرًا وحضرًا، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينه وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها ـ إذا أراد ـ فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئًا من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيرًا من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيتفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم،

فعمد إلى أعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه وأخذ نور الدين يكاتبه مشككًا إياه بنوايا عدد من أمرائه وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد.

وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لإشعالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة: إن أهل دمشق، أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما.

ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئًا من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس فإن ذلك مما يفت في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور ـ الوزير المصيري ـ الإذن بالانفصال، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصني المنبطرة بالشام ٥٦١هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه في سرّيه من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه يجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم وما لبثت حامية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن: ولم يجتمع لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه، فهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

ثانيًا: الشعور بالمسؤولية:

تولد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائمًا في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية[4] في رسالة نور الدين محمود إل إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمذان والري، جوابا على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل ويتهدده بأن لا سبيل له إليها قال نور الدين للرسول: قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك، فلم، تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس: الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين[5].

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة (صـ١٣٢).
(٥) زبدة الحلب (٢/ ٣٣٢).

كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع. فحينما علم في عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م بتحالف الصليبيين قال: لا أنحرف عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضيّاع ويحسن الرأي في الفلاحين ويعمل على التخفيف عنهم الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له النصر.

وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبًا لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين... بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم: فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلمًا لهم وتعديًا عليهم، وهذا مالا يرضى الله تعالى ولا أحدًا من المسلمين.

وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، وانتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحدًا من قاصديه.

وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجًا من قتل المسلمين وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضًا، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين هو يعلم جيدًا أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رخيصًا في مجاهدة هذا العدوّ . . معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء . . . ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول أبو شامة : إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها . لقد كان الدم عنده عظيما، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل .

ثالثًا: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث واضعًا عينية على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب ففي عام ٥٥٢هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية فخربت الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشدًا لا يحصى من الناس وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر على ساعد الجدّ وبذل جهودًا عظيمة في إعادة أعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته : فعادت البلاد كأحسن مما كانت ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال، ولا حصار وفي عام ٥٦٥هـ ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً على سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحّد والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة أعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله فقط أو أنه إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهليها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ومنها إلى حماه فبعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين فإنها

مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهارًا .

ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال مالا يقدر قدره .

إن الكوارث ـ التي يبتلي الله بها عباده ـ تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم والتجارب السياسية والحضارات، خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد أعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق .

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال : كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ : من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره . فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة .

وعلق الدكتور عماد الدين صاحب كتاب "نور الدين محمود الرجل والتجربة" على هذه الحادثة فقال : لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافة .

ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعًا: نزعته للبناء والأعمار:

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن، فقد بنى نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح.

كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجعَّ أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضًا دورًا للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقَّ الطرقات العامة فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية، ولم يغفل نور الدين ـ وهو بصدد البناء والإعمار ـ عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطًا أساسيًا بالإبداع.. ورجل كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة، فقد أوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها لكي يظل هواؤها معبقًا بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حّدد مصارف وقفه المذكور: نصفه على تطبيق جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها.

وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفاحية، مذبحًا من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام، ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩هـ إنشاء بها دارًا عامة: في غاية الحسن سماها

دار المسّرة، وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميدانا " خضّره بالحشيش " وسمي الميدان (الميدان الأخضر)، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام ٥٥٢هـ حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام.

لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته ـ إذا صح التعبير ـ مناسبة تمامًا لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي.

وتبدو نزعة نور الدين للأعمار والتحضر، أكثر ما تبدو، في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج، ونقل أعرب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن هذه الخطوة أنصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبي المنطقة وإرشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم كما إشارة الرواية المذكورة، إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفًا عمرانيًا واضحًا، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين.

ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه لأن تغييرات جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيرًا إلى الاتساع العمودي لدمشق: وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق (ما يقرب من) مائة حمّام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة. . وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موضفيه. فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك.

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان: مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف ويصف مجلسه فيقول: وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدّى هذا. .

وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا.

وقال ابن كثير: لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتا وقوراً.

وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة: ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب. . . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا.

سادساً: محبة المسلمين له:

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٢هـ قال: وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه ثم عوفي فرج المسلمون بذلك فرحاً شديداً.

وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة: وفيها كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشّبحة في رجله فنزل رجل كردي فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه.

وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق وما أبلغ تعبير ابن كثير: مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن، ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر لينام ويتعب ليستريحوا وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله ـ نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلّ شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيمًا بين أبناء أمته وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقرأها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيمًا، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمُنذ عام ٥٤٣هـ حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق: شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً وأخذ يخرج إليه خلال المراحل التالية من الحصار ـ عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا: فما خاب قصده كما يقول ابن القلانسي، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمى كدحهم من تخريب الصليبيين، وفي عام ٥٤٧هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث، للخروج إلى قتاله. لم يخرج إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج.

وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفًا على المسلمين. وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا: يدعون ليلاً نهارًا أن يبذلهم الله سبحانه بالملك نور الدين، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم:

وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم.

وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا ـ بتوفيق الله ـ ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منُذ سنوات وسنوات: يقال أن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علمًا وصاحوا بشعار نور الدين وبعد أقل من ثلاث سنين، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق وتبع نور الدين في حملته تلك: فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير.

وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع طلب نور الدين عام ٥٥٩هـ نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت ؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تخشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر، بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها ؟ فقال: "إن نور الدين قد سلك معي طريقًا إن لم انجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي" فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصحابه وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنوني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته ثم تجهز هو "أيضًا" وسار إلى نور الدين بنفسه.

إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكام والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا فإن بمقدور القواعد، الأكثر ثقلاً وتأثيرًا يومذاك أن ترغمهم على الطاعة وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد، وما من شك في أن انسجامًا عميقًا يتحقق بين القيادة والقواعد ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفًا مخلصًا من أجل الأهداف الكبيرة. . وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته.

سابعًا: اللياقة البدنية العالية:

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسدًا قويًا قادرًا على تحمل الأعباء والمشقات ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة ولذلك كان نور الدين مواظبًا على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه بما يتعلق بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعًا بلعبة الكرة أو الصولجة التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو، ويصفه ابن الأثير بقوله: من أحسن لعبًا بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب، وعندما احتجّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه لأنه يلهو ويعذب الخيل لغير فائدة دينية: قال والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو

والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلاً ونهارًا شتاء وصيفًا إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جمامًا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضًا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة.

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسير إسلاميًا رائعًا في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزهاد عندما كتب له، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشف وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين ولأجسام خيولهم، وإشعال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنود والقادة وفي هذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الدين الرياضية في أعلى درجاتها، فهو يخاطب الزاهد حسب مستواه من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمت أو التعصب، وبهذا الموقف يبين لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشمولي الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي كلام معاذ ﷺ دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله.

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكسه على جنوده وشعبه ودولته والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: M C D E F G H L (الذاريات: ٥٦) وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حقق إنجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية.

قال ابن الأثير: في حديثه عن نور الدين محمود: وكان ـ رحمه الله ـ لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرنها آنفًا.

ثم علق ابن الأثير: بعد نهاية القصة فقال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات يقلّ

في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئًا إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين.

والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقًا لقول الله تعالى: M قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي © رَبِّ الْعَالَمِينَ L (الأنعام: ١٦٢).

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح.

وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده وكان يمارس ألعاب أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق وكان رحلات الصيد الممتعة من رياضته الأخرى، تحمل من الجّد جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: M وَأَعِدُّوا © مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . . . L (الأنفال: ٦٠). ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي. قال: من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا.

وليس مهارات الصيد ـ في نظر نور الدين محمود زنكي ـ سوى محاولة، من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان وحكى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قّرر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ورددت الأناشيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي القبق، كما يقول العماد الأصفهاني. . فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألمًا حادًا وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل.

ثامنًا: تجرده وزهده الكبير:

فهم نور الدين محمود زنكي ﷺ من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة، ولذلك تحَّررَ من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهرًا وباطنًا، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل.

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العّزة إلا ما كان منها طاعة لله – تبارك وتعالى – إذ يقول النبي ﷺ: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء، ألا إن الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه أو عالمًا أو متعلّمًا.

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السَّبابة والوسطى.

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون:

M يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ

عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ L (غافر: ٣٩ـ ٤٠).

كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع رحمه الله عن الدّنيا وحطامها، وزهد فيهما وإليك شيئًا من مواقفه:

١- قال ابن الأثير[6]: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي ابن الشكري وكان خصيصًا بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه في الميدان بالُّرها والشمس في ظهورنا، فكلّما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت: رضي الله عن مَلك يفكر في مثل هذا وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما:

مَثَلُ الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعًا ... وإذا وليّت عنه تبعك

٢ـ تشبه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده وقد كان الأخير حاكم لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم وكان يحضر الفقهاء

(٦) عيون الروضتين (١/ ٢٦١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين فيأخذ ما يفتونه بحله ولم يتعداه إلى غيره البتة[7].

قال العماد الأصفهاني: كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر.

٣ـ وأما ما يهدي إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصّل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة.

٤ـ ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة، وحكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر.

٥ـ قال رضيع الخاتون "زوجة نور الدين": إنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية)؟ فلما قلت له ذلك تنكر واحمّر وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كان

(٧) الكواكب الدرية في السيرة النورية (صـ٥٣).

تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصده لمصالحهم ومعدّة لفتق ـ إن كان ـ من عدّو الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكًا قد وهبتها إياها فلتأخذها: وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً.

٦ـ قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا. وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه. وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمّد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط.

* وأما مقّر سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الأخشاب: فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب.

٧ـ زهده في الألقاب: عندما تفقد قيادة ما القدرة على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وإنكماشها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفًا أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف، وخوفًا أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون وأما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمنع حتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله تلقى يومًا من بغداد هدية تشريف عباسيه ومعها " قائمة " بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد: . . . اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، وشمس المعاني وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين. لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحد يقول: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيدًا من الأضواء عن الموضع وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه. . روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني ـ بعد أن استفزته كثرة الألقاب ـ بأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه فكتب ابن القيسراني كلامًا ودعا له فيه ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل ؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد: اكتب به نسخًا إلى البلاد. ثم أضاف ثم يبدءون بالدعاء: اللهم أره الحق حقًا اللهم أسعده اللهم انصره، اللهم وفّقه. . من هذا الجنس.

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح النفاق والتزلف للمسؤولين لئن ذلك يوفر النقد البنّاء وحرية الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين، زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده فقال:

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زُهّادها

ويقول أيضًا:

ثنى يده عن الدنيا عفافًا ومال بها عن الأموال زهد

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول:

لازلت تقفو الصالحين مسابقًا لُهُم وتَطلُعُ خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي فيه تفانت يَعْرُبُ ونزار

ثانيًا: شجاعته:

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه ٥٢١/ ٥٤١هـ ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيًا وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب يقدم أصحابه عند الكرة ويحمي منهزمهم عند الفرّة[8].

وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م ولم يتمكن هو ومن كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حمص مسافة اثنتي عشر كيلو مترًا وتوقف حتى تجمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيام والسلاح والمؤن من حمص وحلب وأقام معسكره في نفس المكان، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفًا من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلوا أم كثروا والله لا أستظل بجدار حتى أخذ بثأر الإسلام وثأري ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبر نور الدين بقسمه[9].

وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويتغلب عليها، يقول ابن القيسراني:

من باتت الأسد أسرى في سلاسله هل يأسر الغلب إلا من له الغلب

ويقول أيضًا:

(٨) الباهر (صـ١٦٨).
(٩) الباهر (صـ١١٧)، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة (صـ١٢٥، ١٢٦).

أنت حينًا تقاس بالأسد الورد وحينًا تُعدّ في الأولياء

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته يقول العماد في مدحه:

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيّد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوي التيجان

وقال ابن قسيم الحموي:

تبدو الشجاعة من طلاقه وجهه كالّرمح دلّ على القساوة لينُهُ
ووراء يقظته أناة مُجرّب لله سطوة بأسه وسُكُونه

وقال ابن منير:

ملأ البلاد مواهبًا ومهابة حتى استرقت آيه أحرارها

وقال أيضًا:

متهللُ والموت في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه

عاشرًا: مفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نواقضه وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا:

قال له قطب الدين النيسابوري ـ الفقيه الشافعي ـ مرة: بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ـ فقد نصحه بعدم الاشتراك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد، فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو فبكى من كان حاضراً[10].

وهذا الذي قاله نور الدين رحمه الله يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن وما الناس، ابتداء من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات "فاعلة" في يده يحّركها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون الله عز وجل وكفى[11].

هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء[12].

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعًا وإشفاقًا وتصفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقيًا.. فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومّرغ وجهه وتضرع وقال: يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيش فضول محمود في الوسط؟ يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنك يارب

(١٠) الباهر (صـ١٦٩)، الكواكب الدرية (صـ٣٠).
(١١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٤).
(١٢) السابق نفسه.

إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا من الكلب محمود.. حتى ينصر[13].

وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمس مائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفًا على تلّ يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجّالة المسلمين مع رجالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولّيا وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجيًا ربه بسرّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملَّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيّابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتي به ونهيتني عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيّك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذابًا عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُّعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا عليه[14].

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائيًا فحسب ولكن فقيهًا بقدر الله متبصر بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالمًا أن إرادة الله إذا شاءت

(١٣) الروضتين (١/ ٣٧٧).
(١٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي ـ عب هذه الرؤية ـ هذا القائد أو ذاك[15].

وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون: ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سؤله وما يَرُدّ يده خائبة، فيظفر علينا، فهذا كلام الكفار في حقه[16].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر، ومهما أعد المسلمون من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساءوا استخدامه، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء والفقراء والفقهاء كذلك وكان مستوعبًا لقول رسول الله ﷺ: هل تنصرون إلا بضعفائكم.

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين: مخ العبادة، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ: الدعاء هو العبادة، ومفتاح الرحمة ستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تتقطع بهم الأسباب.

(١٥) عيون الروضتين (١/ ٢٥٥).

(١٦) السابق نفسه.

أيها الأخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: M x y z { | } ~ L (الأعراف: ٥٥). وفي مثل قوله تعالى: M - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : L (غافر: ٦٠) وغالبًا ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً: M وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ L (البقرة: ١٨٦).

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفقه الدعاء ومقدرته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضرعه وانكساره بين يدي المولى ﷻ.

الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور قال العماد الأصفهاني: حضرت عند نور الدين بدمشق ـ في شهر صفر ـ والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها[17]. ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يومًا من دخوله إياها عام ٥٦٦هـ فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل

(١٧) ستا البرق الشامي (صـ١٢٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمقام بها، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويمنعني أيضًا أنني ها هنا لا أكون مرابطًا للعدو وملازمًا للجهاد[18].

وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السّباع وحواصل الطير[19].

كانت عقيدة الشهادة تحركه وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلبًا للموت، فأسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها[20].

إن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع مها قال تعالى: M . . . µ ¶ ¸ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ . . . L (آل عمران: ١٤٠).

وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله ﷻ لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه[21].

(١٨) الباهر (صـ١٥٣).
(١٩) الروضتين (١/ ٣٥).
(٢٠) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٣١).
(٢١) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة (صـ٩٥).

والثانية قوله تعالى: M I J K L M N O P Q R S T U V W Y Z [L (النساء: ٦٩).

هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة يقول الله عز وجل في هذه الآية: M 9 : ; < = > ? @ A . . . L (الزمر: ٦٩).

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم[22].

قال تعالى: M d e f g h i j k l m n o p q * s t u v w x y z { | } ~ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ L (آل عمران: ١٦٩، ١٧٠). وقال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . L (البقرة: ١٥٤).

وورد في السنة الثابتة[23] عن النبي ﷺ: إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى

(٢٢) السابق (صـ٩٦).
(٢٣) في صحيح مسلم (كتاب الإمارة ٣/ ١٥٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم أطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ فعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا.

فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فضل المجاهدين على القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفًا. ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد، تشريفًا وتكريمًا من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها ويحافظ على الجماعة وكان كثير الابتهال إلى الله عز وجل في أموره كلها. وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح.

وقال ابن الأثير: حدثني صديق لنا بدمشق ـ كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين ـ فقال: كان نور الدين يصليّ فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاة إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[24].

(٢٤) الباهر (صـ١٦٤).

وقال ابن كثير[25]: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتا وقوراً كان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده.

وعبارة " فكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده " هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كان طبيعة تعبد نور الدين يدفعه إلى المسؤولية ويجعله في قلبها وهو أعمق وعيًا وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذكاء[26].

لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين قال تعالى: B A @ ? > = < M L K J I H G F E D C] [Z Y X W U T S R Q P O N i h g f e * c b a ` _ ^ L l k j (النور: ٥٥، ٥٦).

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله

(٢٥) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨٢).
(٢٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ [27].

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه:

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة قال العماد: وكلف نور الدين.. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى.. وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقّوين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محله، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم وكان يرسم نفقته الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كّله، وعين له وقوفًا [28].

(٢٧) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ١٦١).

(٣٨) عيون الروضتين (١/ ٣٤٦).

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كّل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمره، ومشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيَّته تغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول [29].

وأدرّ على الضعفاء والأيتام والصدقات حتى وقف وقوفًا على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلمّي الخط والقرآن وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجدين، وجهز عسكرًا يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأحُدُ، وكانت قد دفنتها كثرة السيول، وعمّر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم، بقدر كفايتهم وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحّران والرقة، ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلاّبها [30].

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير [31]:

يأيها الملك المنادي جوده في سائر الآفاق: هل من معسر
ولأنت أكرم من أناس نوّهوا باسم ابن أوس واستخصّوا

(٢٩) السابق نفسه.

(٣٠) السابق (١/ ٣٥١).

(٣١) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين (صـ١٧٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلّت لدولتك الرقاب ولا تزل إن تغز تغنم أو تقاتل تظفر

كان نور الدين كما يصفه كثير من المؤرخين: قليل الابتهاج بالشعر لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل[32].

إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية ولكن بتوجسّه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين كسلفه ـ لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سئل يحي بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين فأجاب في إحدى مقاماته: وهو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تجزى[33].

وعبارة غير أنه ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضيًا عنه من الجميع فهناك دائمًا من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة " أعطوه ألف دينا " أو عبارة سل ما شئت. ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمان غمزًا مستورًا لموقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش

(٣٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٣٥، ١٣٦).

(٣٣) السابق (صـ١٣٧).

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين: صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الإزدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول: ما كان ـ نور الدين ـ يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز ـ وهو من سادات التابعين في الشام ـ أنه كان جوادًا حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبّون وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في مدح نور الدين[34]:

في كل عام للبرية ليلة فيها تَشُبّ النارُ بالإيقاد

لكن لنور الدين من دون الورى ناران: نار قرى ونار جهاد

أبدًا يصرّفُها نداه وبأسه فالعام أجمع ليلة الميلاد

مَلِك له في كل جيد منةٌ أبهى من الأطواق في الأجياد

أعلى الملوكِ يدًا وأمنعهم حميً وأمدهم كفًا ببذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرّعا من غير مسألة ولا ميعاد

لا زال في سعد وملك دائم ما دامت الدنيا بغير نفاذ

وعندما أسر الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه فلم يفعل قال أسامة: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارسًا من مقدَّمي الدَّاوية يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر[35].

(٣٤) نور الدين زنكي في الأدب العربي (صـ١٩٧).

(٣٥) أخبار الدولتين (١/ ٣٥٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والملاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني وابن منير والعماد الأصفهاني وغيرهم ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسب أو توخى التزلف.

يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القسيراني بنور الدين ومدحه له: ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القسيراني لنور الدين، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعضّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثّل إعجابًا صادقًا بالبطل الإسلامي وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك[36].

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا يبتهج بالمدح فهذا تواضع منه، لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتديًا بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول[37].

فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع الشعر، بل كان يحب الشعر الملتزم فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال:

للغزو نشاطي، وإليه طربي ... مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب ... والراحة مستودعة في التعب

(٣٦) صدى الغزو الصليبي (صـ١٥٩، ١٦٠).
(٣٧) نور الدين في الأدب العربي (صـ١٩٧).

لا راحة في العيش سوى أن أغزو ... سيفي طربًا إلى العلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العزّ ... والقدرة في غير جهاد عجز

ويقول الأصفهاني في موضع آخر: كنت راكبًا مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها[38]:

عقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني والعماد الأصفهاني وابن منير، وابن الدهان الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبوابًا واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجابًا وتوافقًا وانسجامًا[39].

وأما ما تضمنه قول الوهراني، وقول ابن منقذ من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر مستبعد وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين، كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة بن منقذ نفسه، ولما اختصّ بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة[40].

(٣٨) نور الدين الرجل والتجربة (صـ١٣٨).
(٣٩) السابق (صـ١٣٩).
(٤٠) نور الدين في الأدب العربي (صـ١٩٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبي وبكى عند نورالدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف ـ يعني وقف الجامع ـ فسأل عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل: كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاسًا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنّ الإنعام كان في حقه[41].

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رحمه الله قال فيه ابن عساكر[42]: . . ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دقها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان متأت لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان، حريض على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتني لها بأوفر الأعواض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينية، متتبع للآثار النبوية، مواظب على الصلوات في الجماعات، مراع لآدابها في الأوقات، مؤديًا فروضها ومسنوناتها، معظم لقدرها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مّر الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج متحّر في المطاعم والمشارب والملابس، متبّرئ من التمادي، والتباهي والتنافس، عريٌ عن التجبر والتكبّر، بريئ من التنجيم والتطيَّر، مع ما جمع الله له من العقل المتين،

(٤١) عيون الروضتين (١/ ٣٥٧).

(٤٢) تاريخ دمشق (٦٠/ ١٢٢، ١٢٣).

والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصًا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيرّه، ولقد حكي لي عنه من صحبه في حضره وسفر أنه لم تُسمع منه كلمة فحشى في رضاه ولا ضجره وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمه من دم في طلبهما ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسليمه من أهله بالأمان، ووفي لهم بالعهود والإيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان.

وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم الجرايات، وولى من كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحًا وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطا وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العناد والشقاق . . إلى أن قال : فالله يحقن به الدماء ويسكن به الـدهماء ويـديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويرجى الصالحات على يديه ، ويجعل منـه واقيـة عليه ، فقد ألقى أزمتنـا إليـه وأحـصى علـم حاجتنـا إليـه ، ومناقبـه خطـيرة ، ومادحه كثيرة ، ذكرت منها غيضًا من فيض ، وقلـيلاً مـن كـثير ، وقـد مدحـه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصـف آلائـه بـل قـصروا وهـو قليـل الابتهاج بالشعر ، زيادة في تواضعه لعلو القدرة ، فالله يـديم علـى الرعيـة ظلـه وينشر فيهم رأفتـه وعدلـه ، ويبلغـه في دينـه ودنيـاه مأمولـه ، ويخـتم بالـسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير على ما يشاء قدير . أ . هـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهم صفات نور الدين زنكي

الفصل الرابع

أهم معالم التجديد والإصلاح

في دولة نور الدين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com